بسم الله الرحمن الرحيم

حقيقة معرفة المصطفى ﷺ

سلسلة رسائل السلام خطب منبرية جامعة (7)، د. عبد الحميد عشاق

قال الله تقدست أسماؤه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[(1)].

الأنوار التي انفلقت منه ﷺ وأشرقت بها الأرض أنوار هداية وإيمان، وأنوار معرفة وإيقان، وما بيّنه من الأحكام التي وعاها القرآن ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[(2)].

فالنبي ﷺ هو السراج المنير الذي بنوره استضاءت قلوب المؤمنين، وهو نور الله الذي عجزت عن إطفائه أفواه الجاحدين ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[(3)]، فالنّور في هذه الآية كما ذكر بعض المفسرين إما نور الله الذي هو نور السماوات والأرض، أو كتاب الله تعالى، أو رسول الله ﷺ؛ لأن بواسطته اهتدى الخلق، أو هو النور باعتباره مبينا للناس ما نزل إليهم، والمبيّن هو النور.

فهو الّذي تمّ معناه وصورته ثمّ اصطفاه حبيباً بارئ النّسم

وما ذاك إلا لأن حقيقة النور وحقيقة الحسن الكامل كائنة فيه، وقد جاءت الآيات والآثار بوصف نور جماله الظاهر، ونور كماله المعنوي الباهر كما في آخر حديث علي ﵁: «من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه»[(4)]، وفي حديث أبي هريرة ﵁:

---

(1) المائدة: 15-16.
(2) الزمر: 22.
(3) الصف: 8.
(4) سنن الترمذي: المناقب، باب ما جاء في صفة النبي ﷺ، ح3638.

«مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِه»(5).

وأما كماله المعنوي الأخلاقي، فحسبكم أن العظيم جلّ شأنه أثنى عليه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(6)، وما بعد هذا الثناء من ثناء كما قال القائل:

أيَرومُ مخْلوقٌ ثَناءَكَ بعْدَمــــا أثْنَـى علَـى أخْلاقِـكَ الـخـلاّقُ

قال سعيد بن هشام: «قلت لعائشة ڤ أخبريني عن خُلق رسول الله ﷺ فقالت: أَلَستَ تَقرَأُ القُرآنَ؟ قُلتُ: بَلَى. قَالَت: فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ كَانَ القُرآنَ»(7). وأخلاقه ﷺ كثيرة تجل عن الحصر، ولكن نقتصر هنا على ذكر أصولها وكمالها فيه ﷺ، وأساس شعبها ونقطة دائرتها: العقل الذي منه ينبعث العلم ويتفرع عنه صواب الرأي، وجودة الفطنة، والنظر للعواقب، وحسن التدبير، ومجاهدة الشهوة، واقتناء الفضائل، واجتناب الرذائل.

ولهذا كان ﷺ أحلم الناس، وأصبرهم، وأجودهم، وأشدهم حياء وإغضاء، وأحسنهم عشرة، وأوسعهم صدرا، وأعظمهم شفقة ورحمة، وأوفاهم عهدا، وأوصلهم رحما، وأشدهم تواضعا، وأعدلهم حكما، وأزهدهم في الدنيا، وأخوفهم من ربه، وأشدهم له عبادة إلى غير ذلك من سجاياه الكريمة وخصال الكمال العديدة التي تكل الفهوم عن استكناهها، وقد قيل:

وكيفَ يُدْرِكُ في الـدُّنْيَا حقيقتـه قومٌ نيامٌ تسلّوا عنــــهُ بالحُلُمِ

أجل؛ لقد كلّت الفهوم عندما طلبت الاستشراف والاطلاع على لطيف سرّه، وحقيقة كماله، وما أدرك الناس من حقيقة أمره إلا على قدر عقولهم؛ وهم في اطلاعهم على سرّ نبوته وخصوصية رسالته بحسب مقاماتهم ومنازلهم منه، فكل أحد كشف له من ذلك بحسب مقامه، وعلى قدر قرب روحه من روحه ﷺ.

وأعظم الناس فتحاً في ذلك: سيدنا أبو بكر الصديق t وأرضاه، ولهذا كان أشد الناس قربا منه، وأعظمهم صحبة، وكان أول المؤمنين بنبوته، والمصدقين لرسالته من غير

---

(5) سنن الترمذي: المناقب، باب ما جاء في صفة النبي ﷺ، ح3648.
(6) القلم: 4.
(7) صحيح مسلم: صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل، ح746.

طلب دليل، ولم يعتره توقف ولا تأويل.

ولذلك كان من ورد العارف الراسخ سيدي عبد السلام بن مشيش $ قوله: «اللهم إنه سرّك الجامع الدالّ عليك، وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك، عرفني إياه معرفة أسلم بها من موارد الجهل، وأكرع بها من موارد الفضل»(8). فالنبي ﷺ هو الجامع بين كمال المعرفة وحسن السيرة؛ الجامع بين الجمال والجلال، ثم هو المتمكن القائم مقام الدلالة على الله تعالى. فهو الدليل الأعظم، بعثه الله دليلا يدل عليه ويعرف الطريق إليه، في فترة عمت فيها الضلالة، وزمان كثرت فيه الجهالة، أكثر الخلق فيه عن الله معرضون، وعن بابه حائدون، فدلهم على الله تعالى، وعرفهم الطريق إليه، وردهم إلى بابه الكريم بأقواله وأفعاله وأحواله، وأيقظ الأرواح إلى ملاحظة جلاله وجماله، ومن ثم ألح العارف في الدعاء بقوله: «اللهم عرفني إياه معرفة أسلم بها من موارد الجهل».

والجهل هنا على ثلاثة أضرب:

الأول: خلو النفس من العلم أصلا؛

والثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه؛

والثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقه أن يفعل.

والمقصود من هذا الدعاء الصّالح أن صاحبه -وهو من هو- يسأل الله تعالى أن يُعرفه بقدر المصطفى ﷺ معرفة خاصة تثمر له ثمرة طيبة؛ لا مطلق المعرفة التي يشترك فيها عامة الناس من معرفة نسبه وبيته وصدقه وأمانته، وكونه عاش في القرن السابع الميلادي، وكونه هاجر إلى المدينة، إلى غير ذلك من معالم سيرته ﷺ. فإن هذا القدر يشاركنا فيه كل من هب ودب من الخاص والعام، حتى المشركون؛ إذ كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، ولهذا خاطبهم القرآن الكريم على سبيل الاستفهام الإنكاري للتوبيخ ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾(9)، أي: ألم يعرفوا أصله ونسبه،

---

(8) رياض الرقائق وحياض الحقائق: (ص249-253).
(9) المؤمنون: 69.

وأمانته وصدقه، ومكارم خلقه.

ومن ثمرات المعرفة الخاصة به ﷺ الشفاء من علّة الجهل بمكانته، والتضلع من رحيق محبته التي ينشأ عنها الاقتداء به في أقواله وأفعاله والتأدب بآدابه، والتعلق بأذياله.

ومن ذلك الشفاء من علة الجهل بالله تبارك وتعالى؛ فإن رسول الله ﷺ أعرف الناس بربه وأخشاهم له، ومن هذه المعرفة تتولد كثير من الصفات والخلال التي يمدحها الكتاب كالخشية، والسكينة، والإخبات، والولاية، والقرب، والمحبة التي هي مقصد العارفين وملجأ الواصلين.

ومن الثمرات: لزوم طريق الأدب مع رسول الله ﷺ كما كان حال عمرو بن العاص ﷛ حين قال عن نفسه: «ما كان أحد أحبّ إليّ من رسول الله ﷺ، ولا أجلّ في عيني منه، وما كنتُ أطيق أن أملأ عينيّ منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت؛ لأني لم أكن أملأ عينيّ منه»[10].

فحقيقة معرفة المصطفى ﷺ إذن معرفة خاصة مثمرة توتي أكلها كل حين بإذن ربها.

---

(10) صحيح مسلم: الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله، ح121.